مراعي المستقبل

ما زال الانسان منذ بدء اهتمامه بالعمران يطلب المراعي لما يربي من الماشية . وكانت هذه المراعي قريبة من مساكنه فلما تحولت هذه المساكن المنفردة قرى ومدناً بتقدم العمران وكثر طلب الارض للبناء ارتفع ثمن الارض فجعلت المراعي تتقلص عن مراكز العمران وتنتقل الى الارض الرخيصة الثمن التي يتعذر حرثها لسبب من الاسباب . اذ ليس من الاقتصاد في شيء ان الارض التي يخرج الفدان منها خمسة ارادب من القمح مثلاً تترك مراعي للماشية بل ان هذه الارض يجب زرعها حبوباً وبقولاً . فلذلك ترى المراعي تتحسر عن مراكز العمران في كل بلد آخذ باسباب العمران سواء كان قديم العهد به او حديثهُ

وربما سائل يسأل الى متى يدوم هذا الانحسار وعند اي حدٍّ يقف . فنقول في الجواب انهُ لا يدوم طويلاً . فمتى شرع النوع الانساني يخطو الخطوة التالية في سبيل التقدم ويحوّل همهُ عن الاشياء التي هي اعراض هذه الحياة الدنيا الى الناس الذين هم جوهرها . وعن اختراع المخترعات الكثيرة العجيبة الى اخراج شعوب قوية عجيبة فينئذٍ تبطل الحروب ويزداد الناس ازدياداً طبيعياً فيجعل الانسان همهُ الاول اجهاد الارض لتخرج غاية ما تستطيع من البقول وسائر المزروعات لطعامهِ ولباسهِ فتتضاءل المراعي على التوالي

علمتنا الجغرافية ان سطح الارض ربعهُ يابسة والثلاثة الارباع ماء . وهذا وحدهُ كافٍ للدلالة على ان لا غنى للانسان في مستقبل الزمان عن الاعتماد على البحر في استخراج طعامهِ . فاذا لم يبقَ لنا مراعٍ لغنمنا وبقرنا ارض نزرع فيها فلا مناص لنا من العدول عن تربيتها واذا لم تبقَ لنا ماشية لأكل لحمها فلا غنى لنا عن طلب اللحم من مصدر آخر هو الماء . وتاريخ الانسان الماضي تاريخ سفهٍ واسراف من حيث معاملتهُ للحيوانات التي يحتاج اليها في معاشهِ سواء كانت من الماشية او الطير او السمك

فلنأخذ مثلاً تاريخ معاملتهِ للحيتان اكبر الحيوانات التي دبّت على البرّ او سبحت في البحر . فقد ذكر صيد الحوت في القرن التاسع ولكنهُ لم يصبح حرفة قائمة بنفسها واسعة النطاق حتى القرن السادس عشر حينما كثر صيد الصيادين الفرنسويين والاسبان للحوت من بحار اوربا الغربية وجنوا منهُ الاموال الطائلة . ولم يأتِ القرن السابع عشر حتى بلغ

صيد الحوت من اعظم التجارات ربحاً وانتقل مركز هذه الصناعة من اوربا الى شمال اميركا بعد ما رأى هنري هدسن الاميركي في سياحته الاولى الى جرينلندا وجزر سبتزبرجن غير الآهلة ان البحار هناك تغصّ بالحيتان . فكان يصاد كل سنة منها الف حوت او اكثر . ودام الحال على هذا المنوال سنين كثيرة حتى قال كاتب ان صيد الحوت في تلك المدة كان اربح التجارات الطبيعية التي اشتغل الناس بها منذ اول عهدهم بالتجارة . وحتى قدروا ان صياداً واحداً باع من الحيتان في سنة واحدة بنحو عشرين الف جنيه

ثم عقب هذا المدّ جزر لم يكن منهُ بدٌّ بعد هذا الاسراف مصداقاً لحكاية المرأة التي كان لها دجاجة تبيض كل يوم بيضة ذهباً . فقالت في نفسها ان انا شققت بطنها استخرجت ما فيهِ من البيض جملة فاغنتني دفعة واحدة فلما فعلت ذلك لم تجد في بطنها شيئاً . فان الاقبال على صيد الحوت الغى الى عمران تلك الاصقاع النائية حتى قامت مدينة في سبتزبرجن تعدّ عشرين الف نسمة في مدة قصيرة كانها يوم وليلة . فلما انقطع الحوت وبارت تجارتهُ أقفرت تلك البيوت وامست خاوية ليس فيها ديّار

وكان للولايات المتحدة الاميركية سنة ١٨٤٦ اسطول من سفن صيد الحوت عددها يقرب من سبع مئة فقامت فيها تجارة قُدّر رأس مالها حينئذٍ بسبعين مليون دولار حتى نضبت الحيتان من الاتلانتيكي فدار الصيادون حول اميركا الجنوبية واندفعوا الى الباسيفيكي يصيدون حوتهُ . وقد قال بعض العارفين في كتاب كتبهُ عن الحيتان انهُ كان يمرّ بساحل كليفورنيا ٣٠ الف حوت او ٤٠ الفاً كل سنة من سني العقد الخامس من القرن التاسع عشر . وكانت هذه الحيتان ترى من الساحل وطول الواحد منها يبلغ ٤٠ قدماً او اكثر وكانت اناثها تقصد خلجان البحر الهادئة تحسبها آمنة لتلد صغارها فكان الصيادون ينقضون عليها وعلى نتاجها فيوردونها حتفها . وما برح هذا دأبهم حتى استأصلوا الاصل والفرع وحتى ليخول الصياد الآن على ظهر الاوقيانس الرفّ من الاميال لا يرى حوتاً فضلاً عن ان يصيدهُ

والحوت يصاد للدهن الذي يستخرج من جسمهِ والعظم الذي يستخرج من فكهِ الاعلى . وكانوا يستعملون الدهن للاستضاءة فلما شاع البترول بطل استعمالهُ وصاروا اذا اصطادوا حوتاً يأخذون عظمهُ و يتبذون دهنهُ . وكان هذا العظم رخيص الثمن يباع الرطل منهُ بنحو ثلاثة غروش ونكتهُ جعل يغلو بازدياد طلبهِ حتى بلغ سعر الرطل منهُ نحو ٣٥ غرشاً . اما لحم الحوت فكان ينبذ على كلّ حال حتى تنبهوا في العهد الاخير الى منافعهِ بعد ما رآوا اليابان تستعملهُ طعاماً لها طريفاً وقديداً منذ سنين كثيرة . وقد قدّروا ان في الحوت الذي

طوله نحو ٦٠ قدماً من اللحم ما في سبعين ثوراً . وكان لحم الحوت الجيد الطري يباع في اليابان الرطل بغرش ونصف الى ثلاثة غروش حسب جودته وما لا يمكن بيعهُ في الاسواق المدن الكبرى طريقاً لسبب من الاسباب كشدة حرارة الهواء او بعد المصايد عن المدن كان يقدد و يوضع في العلب . ويقال ان من لحم الحوت ما اذا احسن تدبيرهُ لم يفرق عن لحم البقر الجيد وكثير منهُ يؤكل في نروج

وفي البحر حيوانات اخرى كثيرة لحمها كثير الغذاء طيب النكهة اذا أحسن تدبيرهُ وهي ليست باحسن حالاً من الحوت من حيث معاملة الانسان لها . واشهر انواعها عجل البحر او القشمة المعروفة باسم Seal في الانكليزية . فانهُ طعام اهل الاصقاع الشمالية الذين ليس عندهم الوعل . يصيدهُ الصيادون للاتجار بفروه كما يثيرون بفرو الارانب والثعلب والسنور وغيرها من الحيوانات و يبذلون لحمهُ . وهو لو عني بهِ فقدد ووضع في العلب لسدَّ كثيراً من الافواه الجائعة التي لا تذوق اللحم لغلائهِ . ومما يدلُّ على عظم فتك الانسان بهِ انهُ بلغ ما اصطيد منهُ اربعة ملايين عجل سنة ١٨٦٧ فهبط الى ١٥٠ الفاً سنة ١٩١١ . ولما رأت الدول التي يكثر عجل البحر في ارضها ما آل اليهِ امرهُ خافت ان ينقرض انقراض كثير من الحيوان قبلهُ ببغي ابن آدم وعدوانهِ فعقدت انكلترا وروسيا واميركا واليابان مؤتمراً سنة ١٩١١ سمتهُ مؤتمر فرو القشمة الدولي فقررت حمايتهُ في الاوقيانس الباسيفيكي مدة ١٥ سنة بمعنى انهُ لا يجوز صيدهُ فيهِ الاَّ على شروط معينة تقلل الفتك بهِ

هذه خلاصة مقالة نشرتها المجلة العلمية الشهرية التي تصدر في اميركا بقلم احد العارفين . وقد ختمها منحياً على الناس عامة باللائمة لسوء سلوكهم نحو الحيوانات التي هم في اشدّ الحاجة اليها في طعامهم ولباسهم وسائر مرافقهم المعاشية فقال : ان الخطة التي نسير عليها من جهة طعامنا مبنية على اساس الشهوة دون غيرها . فان معظم الناس يعيشون ليأكلوا وقليل هم الذين يأكلون ليعيشوا . وتراهم اذا قدم اليهم لون من الوان الطعام لم تعودهُ اول ما نسأل هل هو لذيذ الطعم ولا نسأل هل هو مغذٍ يقوت الجسم »

اما العنوان فمأخوذ من قول رجل من اهل جزيرة نتوكت وهي جزيرة قاحلة سيئة عرض الاوقيانس . رأى الحيتان في زمانهِ — نحو اواخر القرن السابع عشر — تلعب في البحر وتمرح فقال : هذا مرعى نضر لاحفاد اولادنا سوف يقصدونهُ لاستخراج طعامهم منهُ » . اراد بذلك انهم سيصيدون حوتهُ للاتجار بهِ والربح منهُ . وقد فعلوا ولكنهم غالوا في صيدهِ حتى كاد ينقرض ولو عني بهِ و بغيرهِ من الحيوانات البحرية المتعددة الانواع

لقضى بها اولاد اولادنا حاجة عظيمة يوم تقلُّ المراعي باتساع دائرة العمران فتقلُّ تربية المواشي ويقلُّ لحمها وحينئذٍ فلا بد للانسان مما يسدُّ مسدَّهُ الاَّ اذا تحول على الثواني من اكل اللحوم الى اكل الخضر والبقول وهذا ما سيقاد اليهِ مضطرًّا لا مختارًا فيما نرى

ولقد اهتممنا بتلخيص هذه المقالة لان موضوعها اكثر انطباقًا على هذا القطر منهُ على غيرهِ فتكاد المراعي تنقرض منهُ تمامًا وسوف لا يبقى لها اثر فيهِ حينما تكثر مياه الري وتصير كافية لكل الاطيان التي يمكن اصلاحها وزرعها . والبرسيم الذي يزرع فيهِ الآن اثمن من ان ترعاهُ القطعان والمواشي المعدة للذبح ولذلك يضطر القطر ان يجلب اكثر ما يذبح فيهِ من الغنم والبقر من السودان وبلاد الشام . ولكن الغذاء في اسمك لا يقل عن الغذاء في لحم الغنم والبقر . وفي القطر اربعة مصادر كبيرة للسمك اولها بحر الروم والبحر الاحمر شمالاً وشرقًا والسمك فيها كثير على انواعهِ فاذا انتظم صيدهُ على اسلوب علمي كفى القطر وسهل اصدار شيء كثير منهُ ولو مقددًا

وثانيها البحيرات الكبيرة بحيرة المنزلة وبحيرة البرلُّس وبحيرة ادكو وبحيرة مريوط . وهي كثيرة السمك واذا اعتني بتربية السمك فيها على طرق علمية وجلبت اليها الانواع الفاخرة منهُ كفت بلادًا اكبر من القطر المصري

وثالثها بركة قارون وهي بحيرة كبيرة كثيرة السمك يوصل من سمكها من محطتين فقط من محطات سكة الحديد وهما محطة ابو كساه ومحطة ابشواي اكثر من خمسة عشر مليون كيلو في السنة ونظن ان ما يرسل من سائر المحطات يزيد على ذلك كثيرًا . وسمكها العريض من اطيب انواع السمك واكثرها غذاء للجسم وتوليدًا للقوة لكثرة ما فيهِ من الدهن . ذاقهُ في العام الماضي رجل فرنسوي من الكبراء الاكونين المشهورين بانتقاد الاطعمة فقال على مسمع منا انهُ الذ سمك اكلهُ في حياتهِ . ولقد احسنت الحكومة بمنع الصيد منها في زمن تفريخ السمك وحبذا لو اطالت زمن المنع قليلاً لان السمك الذي يصاد منها بعيد زمن المنع يكون صغيرًا جدًّا في الغالب

والرابع النيل والترع الكبيرة المتفرعة منهُ . ولو جرت المياه الى بعض المواطىء التي لا تزرع لوطوها ورُبِّي السمك فيها على طريقة علمية لكان منها دخل كبير لا يستخفُّ بهِ

والخلاصة انهُ ان عدم القطر المصري المراعي النباتية ففيهِ مراعٍ مائية واسعة جدًّا لتربية السمك والاستغناء بلحمهِ عن لحم غيرهِ